

تطوير مناهج تعليم العربية في زمن النهضة العربية(*)

-قراءة في مشروع طه حسين قبل 85 عاماً-

*د. غسان إسماعيل عبد الخالق/الأردن

توطئة: ليس ارتكاساً

قد تبدواستعادة طه حسين بعد مرور نحوخمسة وثمانين عاماً على صدور الطبعة الثانية من كتابه (في الأدب الجاهلي) ضرباً من الارتكاس النهضوي، ولكن الشواخص التي رفعها في التمهيد الضافي لهذا الكتاب ما زالت قائمة ولم يتم تجاوزها، رغم كل معالم النهوض الظاهري التي حفل بها الوطن العربي على امتداد العقود الثمانية السالفة.

إن الأهمية البالغة التي علقت وما زالت معلقة على النهوض بمناهج تعليم العربية، لا تعود إلى المكانة الاستثنائية التي تتمتع بها اللغة العربية في الثقافة العربية فحسب، بل عادت وما زالت تعود إلى الدور الاستثنائي الذي اضطلع وما زال مفترضاً أن يضطلع به أساتذة اللغة العربية في المدارس والمعاهد والجامعات. ومع أن مكانة ودور المعلمين بوجه عام قد تراجعاً في المجتمعات العربية مقارنة بمكانة ودور رجال الأعمال والمهنيين والفنيين... كما أن مكانة معلمي العربية بوجه خاص قد تراجعت في الأوساط التعليمية مقارنة بمكانة معلمي العلوم واللغات الأجنبية، إلا أن معلم العربية هومن لا يزال يرفع علم المدرسة ويقود نشيد الصباح ويشرف على الإذاعة المدرسية والمسابقات الثقافية والمكتبة، ويستأثر بالحد الأعلى من الحصص وأوقات التعليم. وكل ما يمكن أن يقال عن دوره في المدرسة يمكن أن يقال أيضاً عن دوره في المعاهد المتوسطة والجامعات.

(*) قَدِّمَ ضمن أعمال ملتقى عمان الثقافي "المشروع الثقافي النهضوي العربي" الذي انعقد في المركز الثقافي الملكي -عمان، ما بين 2002/9/19-16.

إن معلم اللغة العربية في المدرسة أوالمعهد أوالجامعة هو-في الواقع-، الموصل الرئيس في أغلب الأحيان والصانع الأول في أحيان أخرى لمعالم الهوية الوطنية والقومية والحضارية، ويتحمل أكثر من غيره مسؤولية رسم الصورة النمطية للذات والآخر والتاريخ والمجتمع، كما يتحمل مسؤولية محصلة العلاقة بين آليات التفكير وأساليب التعبير لدى الأجيال الطالعة، ومحصلة مهارات الاتصال والانفصال التي يمكن أن تترسخ لدى أفراد المجتمع. إنه قادر على أن يرسخ مهارات الاستماع وثقافة الحوار والتواصل، كما يمكن أن يرسخ مهارات الاكتفاء وثقافة الانفصال والإملاء والتلفيق والانفعال، لأنه -ببساطة- مسؤول عن تعليم الأجيال ماهية وكيفية الكلام.

ولا ريب في أن تداعي أهداف الدعوة إلى النهضة العربية الأولى، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، يعود مما يعود إلى القصور الفادح على صعيد تطوير مضامين وأساليب تعليم العربية في الوطن العربي، رغم المحاولات المتتابة الرسمية وغير الرسمية التي بذلت للنهوض بما يفترض أنه مخيال الوعي ومرآة العالم، بل إن هذا التداعي قد امتد حتى طال الصورة النمطية لمعلم العربية نفسه، فغدا موضع تندر وسخرية ككتاب الرواية والمسرح والدراما التلفزيونية ورمزاً للزمت الفكري والاجتماعي والنفاق السياسي والثقافي، والضحالة والتلفيق والسطحية وابتذال الذات.

والحق أن الحال الذي آل إليه معلم العربية، سواء أعيناه بمنظار الواقع الحياتي اليومي أم بمنظار الأدب والدراما ووسائل الإعلام، لا يكاد يختلف الآن - في مستهل الألفية الثالثة- عن الحال الذي أبدع طه حسين في إبراز نماذجه وأنماطه الفنية النابضة بالحياة والسخرية والتهمك على امتداد صفحات كتابة (الأيام)، ولا عن الحال الذي أبدع أيضاً في تشخيص ملامح السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والثقافية في تمهيده لكتاب (في الأدب الجاهلي).

وإذا كانت النماذج أو الأنماط التي نطالعها في (الأيام)، لا تكاد تفترق عن النماذج أو الأنماط التي نطالعها الآن، إلا بالبزة والاسم -فالتقليدي ما زال مترمناً وتلفيقياً سطحياً والتغريبي ما زال منبئاً متكبراً غامضاً- فإن الشواخص التي نصبها في تمهيدته لكتاب (في الأدب الجاهلي) لا تكاد تختلف عن الملامح الشاخصة الآن والمرشحة للشخوص لعقود قادمة، ما لم تتوفر إرادة نهضوية جديدة لمواجهة الاستحقاقات التي تترتب عليها.

قراءة : شواخص ما زالت (شاخصة)!

يبدأ طه حسين تشخيصه النهضوي لواقع تعليم اللغة العربية بالتوقف عن حقيقة (توهم) التقليديين القبض على جوهر موروث العربية إلى الحد الذي يبدومعه الفارق شاسعاً بين ما يلقنونه للمتعلمين وبين ما هو مكنون في الموروث، لأن ما يلقنونه ليس إلا نسخة شوهتها الشروحات والتهديبات والاختصارات حتى بعدت الشقة بين المتن العميق الرفيع وبين الفرع السطحي المكروور، وإلى الحد الذي يجار معه طه حسين قبل خمسة وثمانين سنة -كأنما هويجار بصوتنا الآن- متسائلاً عن النظام التعليمي الذي يسمح بتكرار مضمون وأسلوب تعليمي محدد لعقود متعاقبة، بحيث أن ما تلقاه الجيل الأحدث لا يكاد يختلف في شيء عما تلقاه جيل سابق جداً.

إن وهم التغريبيين لا يقل خطراً عن وهم التقليديين، فهم كما يلاحظ طه حسين متحذلقون متعالون نزقون غامضون، يبدؤون ويعيدون في الكلام على مفاهيم وأفكار وآداب وتواريخ غريبة بمصطلحات ناتئة موهلة في الإغراب وكأنما هم يؤكدون بهذا النوء معضلة بعض حملة الثقافة المحدثثة في الموروث البعيد ومعضلة بعض حملة الثقافة الحداثية في حياتنا العربية المعاصرة.

على أن الأخطر من التقليديين والتغريبين في آن، أولئك الذين توهموا في مقدورهم الجمع بين الاثنين، فأغرقوا المدارس الرسمية الحكومية بمختاراتهم الباهتة، ولم تعد مناهجهم التي وضعوها حد انتزاع بضعة أبيات لهذا الشاعر، أوبضعة سطور لهذا الكاتب، مذيلة بتاريخ ولادته ووفاته، علاوة على تأكيد أن أسلوبه يتسم بصدق العاطفة وجزالة الألفاظ وشرف المعاني !!

تري.. ألا يصف طه حسين وهويشخص واقع مناهج العربية في المدارس الرسمية الحكومية قبل خمسة وثمانين سنة.. ألا يصف واقع المناهج العربية في المدارس الرسمية الحكومية العربية الآن؟ ألا يصف واقع الانتقاء والتلفيق والتسطيح غير المبرر إلى الحد الذي يلحق معه المتعلم قصيدة أبي نواس (دع عنك لومي فإن اللوم إغراء.. إلخ) دون أن يوقف على المخاطب فيها وهو(النظام)، ودون أن يوقف على أصول الاعتزال وفروعه، ودون أن يوقف على أثر الاعتزال وفروعه، ودون أن يوقف على أثر الاعتزال الأدبي والفكري والسياسي والديني في الثقافة العربية الإسلامية. إن المتعلم يلحق مثل هذه القصيدة فيحملها على أنها شاهد على التحدي الماجن العبثي للمجتمع في أحسن الأحوال، لكنه سرعان ما ينساها بعد أن يستظهرها و(يكرها كراً) في جلسة (الامتحان) في معظم الأحوال. كم هو مؤلم أن تكون هذه هي محصلة هذا المثال التعليمي، فلا يبرز من ذلك المشهد السياسي الاجتماعي الفكري الثقافي المضطرب بالجدل إلا صرخة تمرد فردي لا تلبث هي الأخرى أن تهمد تحت ركام التفسير المعجمي والتذوق الشكلي. ولم لا ما دام أن كثيراً من معلمي العربية في مستهل القرن العشرين المنصرم -كما يؤكد طه حسين- كانوا يحظرون تعليم الكامل للمبرّد، لا لشيء إلا لأنه كان معتزلياً، وما دام أن كثيراً من معلمي العربية في مستهل هذا القرن الواحد والعشرين ما زالوا يؤكدون لطلابهم أن المعتزلة فرقة كافرة !!

إن التضلع بالعربية لا يعني بالضرورة أن المتضلع بها قادر على وضع المناهج التي يمكن أن تنهض بها، بل هو محتاج علاوة على ذلك إلى الإلمام بطرائق التدريس ومناهج التعليم الحديث. وحيث أن هذه الطرائق والمناهج قد استوت على سوقها في الغرب فلا بد من ابتعاث بعض المتضلعين بالعربية إلى الغرب استكمالاً للسنة الحميدة التي استنتها محمد علي. بل لابد من الاستعانة بمن يسميهم طه حسين (الفنيين) أو من ندعوهم نحن الآن (خبراء المناهج) ليشرّفوا على تصميم وإعداد مناهج العربية، ذلك أن التبحر في موضوع العربية شيء والعلم بالطريقة المثلى لإيصال العربية شيء آخر. وعليه فلا بد من استحداث معاهد تربوية خاصة بطرائق تعليم العربية إلى جانب أقسام العربية، تعنى بتخريج الفنيين والخبراء في هذا الشأن.

إن طه حسين لا يخفي حماسه البالغة للجامعة الأهلية المصرية، مقارنة بالأزهر التقليدي ودار العلوم والمدارس الحكومية ذات الصبغة المنهجية التفيقية. وبوجه خاص فهولا يخفي حماسه للمنهج (الوظيفي التواصلي) لدى بعض المحاضرين في الجامعة الأهلية المصرية، أولئك الذين يتوجهون مباشرة إلى تلاميذهم بالتحية بدلاً من البدء بديباجة عصماء ليس فيها ما هو موجه إلى التلاميذ، وأولئك الذين ينطلقون مباشرة من المسألة محورية إلى مسائل أخرى بالتداعي المحكم المدروس ودون أن ينسوا حق التلاميذ في التساؤل والمناقشة والتعليق والاعتراض.

ولا يفوت طه حسين أن يؤكد على صعيد النهوض بمناهج تعليم العربية الحاجة الماسة إلى مراعاة متغيرين رئيسيين في الحياة العامة ؛ أولهما يتمثل في ضرورة استبطان حاجات وتطلعات الجيل والعمل على إشباع هذه الحاجات والتطلعات عبر موضوعات وأساليب مقنعة ومواكبة ومرنة لا تنفر الجيل من العربية وأسائرتها بل تحببها إليهم وتقربها منهم، وثانيها يتمثل في ربط تعليم

العربية بوسائل الاتصال الجماهيري وعلى رأسها الصحافة، فما ينشر في الصحف والمجلات متعلقاً بالعربية وقضاياها هو المرأة الحقيقية النابضة بالحياة وليس ما يقبع في بطون المقررات الجامدة والمختصرات والملخصات المهجورة. ومما يؤسف له أن هذه الدعوة إلى جمهرة العربية وقضاياها عبر ربطها بأبرز وسائل الاتصال الجماهيري ما زالت تجابه وبعد خمسة وثمانين سنة من إطلاقها بإعراض كثير من أساتذة العربية المتمزتين أو القاصرين عن امتلاك الأسلوب الخاص بالكتابة الصحفية أو بالتعريض بالأدب الصحفي والكتاب الصحفيين، بدعوى أن الاثنين يتسمان بالركاكة والسطحية، ولوأرجعوا النظر فيما يقولون لأقروا بأن ما لديهم من محفوظات ونصوص محتاجة إلى ما ينفذ عنها الغبار ويمدها بأسباب الحياة، ولن يتم ذلك إلا عبر الصحف والمجلات.

ولا يفوت طه حسين أيضاً، التنوية بالخطورة البالغة التي ينطوي عليها التعصب الشديد والأعمى للعربية والتمترس خلف الاعتقاد بأنها أشرف اللغات والآداب والاستغناء عن الإلمام بكل ما عداها من لغات وآداب أجنبية. إذ علاوة على أن الإلمام باللغات والآداب الأجنبية قد كان أبرز روافع النهضة الحضارية العربية في العصر العباسي، فإن معرفتنا بالعربية لن تتعاضد إلا عبر الوقوف على أوجه الشبه والاختلاف بينها وبين غيرها من اللغات والآداب، لأن المقارنات والمقاييسات الحضارية الموضوعية هي وحدها الكفيلة بتعزيز المعرفة الواعية بالذات.

ومن المفارقات الطافحة بالمفارقة، أن طه حسين وقبل خمسة وثمانين عاماً ينشط للبرهنة على ضرورة امتلاك مدرس العربية لثقافة عابرة للتخصصات تؤهله لأن يكون ابن العصر وابن العالم. كما ينشط للبرهنة على أن امتلاك هذه الثقافة العابرة للتخصصات ليس استحداثاً لشرط جديد في مدرس اللغة العربية بل استئنافاً لشرط راسخ وقار في شخصية مدرس العربية، كما تجلت لدى كثير من

معلمي العربية في العصر العباسي الذين (أخذوا من كل علم بطرف) ووظفوا هذا الأخذ من السياسة والعلوم والمعاش (الاقتصاد) والصنائع والتاريخ في سبيل تطوير العربية وتطوير معرفتهم العربية. إن هذا العصر (قبل خمسة وثمانين عاماً!!) هو عصر الأفق الواسع كما هو عصر التخصص الدقيق، والعلاقة بين الأفق والتخصص يحكمها احترام الدقة من جهة واحترام الاطلاع والمواكبة من جهة أخرى. إن معلم العربية كما هو مندوب للتعلم في دقائق العربية وإتقانها، مندوب أيضاً لشد وثاق العربية وعلومها بمظاهر ومناشط الحياة بوثاق متين، ولا ينبغي له أن يظل مدفوناً داخل معاجمه وفهارسه ومخطوطاته وقصائده وخطبه، إنه مدعولتحليل الخطاب السياسي وإبراز الاستراتيجيات الألسنية والأسلوبية فيه. ومدعولتحليل الخطاب العلمي وإبراز عنصر الاقتصاد اللغوي الكامن فيه، ومدعولتحليل الخطاب التاريخي وإبراز استثماره الهائل للخطاب الديني.

مع ذلك، فإن طه حسين، لا يدخر وسعاً للتذكير بأن آداب العربية - كأى آداب أخرى - لا بد أن تقع وسطاً بين العلم الخالص والذوق الخالص، إذ مهما اتخذنا من وسائل ومناهج علمية موضوعية بحثاً لبحث الأدب فليس في مقدورنا تجاهل عامل النظر الذاتي والتذوق الشخصي والموهبة الفردية في استقراء النصوص وتحليلها وتركيبها.

ومن أبرز الشواخص التي يتوقف طه حسين بازائها طويلاً، التحذير من اتخاذ التاريخ السياسي الرسمي مقياساً لتأريخ العربية وآدابها، لما يترتب على هذا المقياس من مغالطات تاريخية ومنطقية. إن طه حسين يرفض من حيث المبدأ الانطلاق من مقولة التحقيب، ومن ثم فهو يرفض ذلك التقسيم الساذج لتاريخ العربية وآدابها : العصر الإسلامي..العصر الأموي..العصر العباسي..العصر الأيوبي والمملوكي.. العصر العثماني.. العصر الحديث. بل هو يرفض بوجه خاص إطلاق مسمى عصر الانحطاط على العصر الأيوبي والمملوكي وما تلاه

لسبب وجيه مؤداه أن هذا المسمى يوحي بوجود علاقة تلازم حتمي بين الانحطاط السياسي والانحطاط اللغوي والأدبي، وهو ما لا تؤكد الوقائع التاريخية. إذ فيما نلاحظ اشتداد النهضة اللغوية والأدبية خلال مطلع العصر العباسي فإننا نلاحظ ازدهار وتنوع هذه النهضة أثناء عصر الدويلات. إن الدافع إلى ربط النهوض السياسي بالنهوض الأدبي كما يرى طه حسين هو صيانة مركزية أدب المركز (دمشق، بغداد.. القاهرة.. قرطبة) وتهميش أدب الأطراف، مع أن أدب الأطراف قد يتجاوز من حيث الأهمية أدب المراكز في أحيان كثيرة. ولعل الأخطر من كل هذا هو الإيهام بأن النهضة الأدبية مستحيلة ما دامت النهضة السياسية غير متحققة، مع أن النهضة الأدبية في أوروبا مثلت الرافعة الرئيسة للنهضة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والعلمية.

خلاصة : دعوة إلى النهوض مجدداً

بعد أن عرض طه حسين لأبرز أعلام ومناهج المقياس العلمي الذي سبق أن تحفظ على تحكيمه بإطلاق في مباحث العربية ويتوقف مع سانت بيف وتين وبرونتيير، لا يفوته التنويه بضرورة النظر بعين الاعتبار الشديد إلى منهج برونتيير التطوري خاصة، إذ إن اللغات والآداب جميعها تخضع مثل الأحياء لقانون صراع البقاء، وهي مثل الأحياء أيضاً مهددة بالزوال والفناء والانحسار والجمود ما لم تحز شرطي (الأصلح.. فالأبقى)، وهي لا تحوزهما إلا إذا امتلكت المقومات التالية :

-أولاً : النهضة العلمية هي أساس النهضة اللغوية والأدبية، فالابتكارات والاختراعات والصناعات هي وحدها التي تتكفل بنشر وترويج لغة وآداب بعينها تلقائياً وحضارياً.

-ثانياً : إن النهوض بالعربية لن يتم إلا إذا أنجز تاريخ حقيقي للغة العربية وآدابها. وإن التاريخ الحقيقي للغة العربية وآدابها لن يتم إلا إذا أنجز التاريخ

السياسي العربي الحقيقي والتاريخ العلمي العربي الحقيقي والتاريخ الفكري العربي الحقيقي والتاريخ الفني العربي الحقيقي.

-ثالثاً : إن النهوض باللغة العربية وآدابها لن يتحقق إلا إذا توفرت الحرية السياسية بمعناها العام، وإلا إذا تم التحرر من سطوة اللغة باعتبارها ماهية مقدسة بوجه خاص، وإلا إذا تم التعامل معها على أنها ظاهرة تاريخية اجتماعية قابلة للبحث العلمي الموضوعي بعيداً عن الانحياز العاطفي المسبق في كل الأحوال.

-رابعاً : إن الشك الإيجابي المنتج وفق المنهج الديكارتي ومنهج البحث العلمي الفلسفي، هو ما ينبغي أن يوجه تعاملنا وعواطفنا وتطلعاتنا على صعيد النهوض بالعربية وآدابها، وليس التسليم بكل ما نقرأ على علته، أو الركون لكل ما نسمع على عواهنه.

-خامساً : التوقف عن التعامل مع العربية على أنها محض وسيلة ثانوية لغايات علمية أشرف أو محض شكل أجوف لمضمون أعلى، لما في ذلك من تناقض منطقي وعلمي فادح، إذ كيف يمكن أن يستقيم لنا القول بقدسية اللغة العربية في ذاتها ثم نتعامل معها على أنها مجرد إناء لعلوم شريفة ينبغي أن تقصد بالطلب !؟